جمعية العلماء ومنهجها في تجديد العقيدة الإسلامية

د. محمد رزمان

يتفق معظم الدارسين والمؤرخين على أن ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931، بعد احتفال الاستعمار الفرنسي بمرور قرن كامل على احتلال الجزائر، وإعلان مسؤوليه عن تشييع جنازة الإسلام بها، يشكل حدثا تاريخيا بارزا على جميع الأصعدة. إذ لا يستطيع باحث منصف أن ينكر أهمية وخطورة الدور الحضاري الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين في إنقاذ المجتمع الجزائري وترشيد الحركة الوطنية، والأثر العميق الذي تركته في التاريخ الجزائري الحديث باعتبارها إحدى المنظمات الوطنية الكبرى التي حملت على عاتقها رسالة النهوض بالشعب الجزائري في المجالات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية، ومواجهة السياسة الاستعمارية التي كانت تعمل على تغريبه والقضاء على مقومات شخصيته العربية الإسلامية.

ونحسب أن تجديد الدين وإحياءه كان هدفا حيويا في عمل الجمعية الإصلاحي، إذ وضعته على رأس اهتماماتها وبذلت فيه جهودا كبيرة من أجل فهمه فهما صحيحا والرجوع إلى ينابيعه الأولى المتمثلة في الكتاب والسنة وفهوم السلف الصالح باعتبارها أصح الفهوم للإسلام قبل ظهور المدارس الكلامية والفلسفية، أو بعبارة أخرى إعادة الدين إلى أصله يوم نشأ وإظهاره أقرب إلى صورته الأولى عن طريق تنقيته من الضلالات والأباطيل التي علقت به بسبب أهواء البشر على مر العصور، ورفع ما أثير حول قيمه وتعاليمه من شبه وشكوك وأوهام، وتقديمه للناس في بساطته ويسره وسماحته ليدركوا ارتباطه العميق بالحياة الإنسانية في جميع جوانبها.

وقد تطلب تحقيق هذا الهدف الحيوي العمل في ثلاث دوائر أساسية هي :

1- تجديد العقيدة وتنقيتها من البدع والخرافات.

2- إحياء الفقه الإسلامي والدعوة إلى تحريك العقل الاجتهادي.

3- الثورة على الطرق الصوفية المنحرفة والدعوة إلى الصلاح والاستقامة الشرعية.

وسنتحدث في هذه المقالة عن منهج جمعية العلماء في تجديد العقيدة. فكيف - إذن - عملت جمعية العلماء على تجديد العقيدة؟ وما هي الأسس التي يقوم عليها منهجها؟ وإلى أي حد كان هذا المنهج منسجما مع الإطار المرجعي الإسلامي ومقتضيات الواقع الجزائري؟ وهل نجحت في ذلك ؟

جمعية العلماء ومنهجها في تجديد العقيدة:

العقيدة الإسلامية هي الأمور القطعية اليقينية التي ارتضاها المسلم وجزم بصحتها عن دليل واطمأن إلى مضمونها طمأنينة قلبية، بحيث يصبح الشك والريب محجوزا بحاجز الصدق واليقين. وإذا ما عقد عليها الإنسان قلبه

فلا بد من أن تكون من العمق والتمكن بحيث تمتزج بنفسه امتزاجا كاملا، وتصبح جزء منه، ومرجعا لكل سلوكياته وتصرفاته.

والعقيدة الإسلامية إذا تمكنت من القلب. ورسخت في الأعماق أثمرت ثمرات يانعة، وشحنت صاحبها بطاقات عجيبة. تتخطى اللذائذ والمنافع الشخصية إلى آمال وطموحات تحقق سموه الروحي، وكماله الإنساني وتحمله على السعي إلى الغايات السامية والأهداف البعيدة.

والتاريخ الإسلامي خير شاهد على هذه الحقيقة. حيث كان للعقيدة مجالها الواسع الذي تجلت فيه وآتت أكلها وأسعدت الإنسانية حينا من الدهر عندما خرجت ذلك الجيل القرآني الفريد[1]. في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذي شكل – بحق – ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها المسلمون طويلا، لأنها ذات أثر حاسم في منهج التجديد الإسلامي.

وقد ظلت هذه العقيدة تمارس تأثيرها الإيجابي في حياة المسلمين خلال القرون الأولى عندما كانت حية صافية. ثم بدأ هذا التأثير يضعف شيئا فشيئا. وتوهجها يخفت رويدا رويدا في النفوس لما ضعفت صلة المسلمين بمصادر الهداية: الكتاب والسنة. وبدأت أهواء البشر تضفي عليها أشكالا غريبة وطقوسا مستحدثة. فأحاط بها ركام ضخم من البدع والخرافات حجبت عن الناس صفاءها وبساطتها. هذا على مستوى السواد الأعظم من العامة. أما على مستوى الخاصة فقد تحولت إلى جدل فلسفي عقيم يدور حول قضايا ومقولات كلامية جامدة معقدة[2]، لم تكن واردة عند الجيل الأول من الصحابة والتابعين. وبذلك فقدت هذه العقيدة فعاليتها الاجتماعية في حياة الأمة الإسلامية.

وقد دفعت هذه الحالة العلماء المجددين – على مر القرون – إلى بذل جهود محمودة في سبيل تنقيتها وتطهيرها مما طرأ عليها، وتجلية وجهها الحقيقي. ويندرج ذلك ضمن محاولات تجديد العقيدة الإسلامية الذي يعني إعادة إحيائها من جديد في نفوس المسلمين ببساطتها ويسرها وسماحتها، وربطهم المباشر بالقرآن والسنة دون وساطات بشرية. والقضاء على كل أشكال الخرافات والبدع والضلالات ليعود لهذه العقيدة دورها الإيجابي كما كانت في عهد السلف الصالح.

والإسلام هو الدين الوحيد من بين الأديان السماوية الذي أقر شرعية التجديد. وعده سنة من سنن الله الدائمة الفعل على مر العصور: " فكما يصدأ السيف فيحول الصدأ بينه وبين الفعل الخلاق. كذلك تصيب السنون المنظومات الفكرية، ومنها الأديان. بالبدع والخرافات والإضافات التي تحجب جوهر الدين فتعطل فيه الطاقات والفعاليات. وبسبب من كون الإسلام هو خاتم الرسالات. وحتى يكون صالحا لكل زمان ومكان كان التجديد فيه قانونا دائما "[3].

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر في الحديث الشريف: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها "[4]. ويضطلع بمهمة التجديد هذه علماء الأمة الذين يفقهون أسرار الشريعة، ويدركون بثاقب أبصارهم حكمها ومقاصدها، ويحيطون بظروف عصرهم الذي يعيشونه، فيستطيعون بذلك أن يعرضوا مشكلات واقعهم على الكتاب والسنة ويكيفوا مستجدات الحياة مع أحكام الإسلام دون أن يفقدوها مقاصدها وأسرارها.

وقد وضعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس أولوياتها تجديد العقيدة الإسلامية في نفوس الجزائريين بتطهير دخائلهم مما علق بها من بدع وخرافات وأساطير تراكمت على مر الزمان بفعل رواسب عصور الانحطاط وواقع الاحتلال الفرنسي المظلم، وإعادة فعاليتها الاجتماعية لتكون المحرك الأساسي الذي يدفع الإنسان إلى ضرورة التخلص من واقعه اليائس ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية بعزيمة قوية وإرادة صلبة.

فقد كانت الجمعية تدرك الأهمية القصوى التي تكتسيها العقيدة الصحيحة القوية في حياة الأفراد والأمم، وتؤمن أن تجديد عقيدة الفرد الجزائري هي الخطوة الحاسمة والأساسية نحو تغيير جذري مثمر. لذلك ركزت على هذا الجانب تركيزا كبيرا، وخصصت له مساحة معتبرة في برامجها، وجندت له جهود رجالها الذين لم يتوانوا عن استغلال جميع ما أتيح لهم من وسائل وأساليب مشروعة لخدمة هذا الهدف. وقد تجلى ذلك بشكل واضح في الحملة الواسعة من الدروس المسجدية والخطب الجمعية، والمحاضرات العامة، والاحتفالات الدينية التي قادها العلماء في جميع الأماكن التي أتيحت لهم فيها فرصة الحركة والنشاط، بالإضافة إلى الكتابات والمقالات الصحفية الكثيرة التي كانت تملأ أعمدة صحف الإصلاح.

وقد تحددت هذه الرؤية حول مكانة العقيدة ودورها في عملية التجديد الحضاري واتضحت معالمها عند جمعية العلماء منذ تأسيسها عام 1931، يدل على ذلك ما ورد في أصول دعوتها التي تشرح فلسفتها في الإصلاح الديني وفيها أن :

- التوحيد أساس الدين، فكل شرك في الاعتقاد أو في الفعل - فهو باطل مردود على صاحبه.
- العمل الصالح المبني على التوحيد به وحده النجاة والسعادة عند الله، فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذي يغني عن الظالم شيئا.
- اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله في شئ ما شرك وضلال، ومنه اعتقاد الغوث والديوان.
- بناء القباب على القبور، وقد السرج عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهلة لأعمال المشركين. فمن فعله جهلا يعلم، ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم فهو ضال، مضل.

- الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، ومبناها كلها على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هنالك من استغلال وإذلال، وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال، ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور "[5].

ويؤكد الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء هذه الحقيقة في قوله: " قد كانت وجهتنا الأولى في النقد الديني هي الاعتقادات، ولقد كان همنا الأول تطهير عقيدة التوحيد من أوضار الشرك القولي والفعلي والاعتقادي فإن التوحيد هو أساس السلوك، لذلك ابتدئ بـ " إياك نعبد " قبل " اهدنا " في فاتحة القرآن العظيم"[6].

وهذا المنهج الذي اتبعته جمعية العلماء في الاهتمام بالعقيدة وإحلالها مكان الصدارة في التجديد الديني والتغيير الحضاري، ليس اجتهادا خاصا بها، بقدر ما هو امتداد لمنهج الأنبياء الكرام في تقرير العقيدة وإثبات حقيقة التوحيد في نفوس الناس، وتحريرهم من ظلمات الشرك والعبودية لغير الله: { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}[7].

وهو أيضا اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، والذي كانت العقيدة هي قطب الرحى الذي دارت حوله دعوته خلال المرحلة المكية، حيث اعتنى بها القرآن عناية فائقة، وكان عمل النبي الكريم يكاد ينحصر في بناء النفوس وتنقيتها من شوائب الجاهلية وآثار الباطل، وتعميرها بمعاني التوحيد وإنارتها بنور الإيمان.

وجوهر هذا المنهج الذي رسمت جمعية العلماء معالمه في دعوتها يتمثل في تغيير نفس الإنسان الجزائري بتخليصها من ركام الأفكار والتصورات التي تكرس فيها مشاعر الميل إلى الركود والتكاسل والانحراف، وإحلال العقيدة الصحيحة والفكر النظيف والتصور السليم محلها وهو ما نعبر عنه بعملية الإفراغ ثم الملء، أو الهدم ثم البناء، وقد أشار إليها محمد البشير الإبراهيمي بقوله: "نهدم ونرفع الأنقاض ونبني ونعمر في آن واحد"[8].

وعملية الهدم والبناء، أو الإفراغ والملء كانت وسيلة القرآن في تغيير النفوس التي لوثتها الوثنية، ومسلك الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، حينما كان يفرغهم من التصورات الجاهلية في الاعتقاد والسلوك، ويملؤهم بمعاني التوحيد. وبذلك فإن جمعية العلماء في تجديدها للعقيدة كانت امتدادا للتصور الإسلامي سواء في الهدف أو الوسيلة، ولا تختلف عنه إلاّ في إعادة صياغته من جديد، وتوظيفه حسبما يقتضيه الواقع الجزائري وروح العصر. ويقوم منهجها في تجديد العقيدة على عدة عناصر أساسية يمكن حصرها في :

الثورة على البدع والخرافات، ونقد مناهج المتكلمين والفلاسفة، واعتماد طريقة القرآن في تقرير العقيدة، ومقاومة الحركة التنصيرية والتيار الالحادي. وفيما يلي محاولة لشرح معالم هذا المنهج بنوع من التفصيل، حتى تتضح لنا الصورة العامة له.

أولا: الثورة على البدع والخرافات. لقد كان شيوع البدع والخرافات وتفشي الضلالات في الدين تحديا خطيرا واجه جميع عمليات التغيير التي عرفتها الساحة الإسلامية منذ القديم. وقد كان ابن تيمية في زمنه صرخة مدوية في وجه البدع التي ظلت تتراكم يوما بعد يوم وأضحت تمثل خطرا حقيقيا على جوهر الدين. حيث تصدى للفكر العقدي الإسلامي وأخضعه للتمحيص والمراجعة الشاملة في سبيل تنقية عقائد الإسلام ومبادئه من كل دخيل. وعاد فعرض هذه العقائد صافية بسيطة كما بينتها آيات القرآن الكريم ووضحتها السنة النبوية الصحيحة. في إطار ضوابط تفسير النصوص التي أقرها علماء الإسلام الثقات، بعيدا عن كل تأويل. يقول محمد البشير الإبراهيمي. منوها بهذا الدور العظيم الذي قاد به ابن تيمية: " ولا علمنا فيهم مثلا في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام (أحمد بن تيمية)... فقد شنها حربا شعواء على البدع والضلالات، أقوى ما كانت رسوخا وشموخا. وأكثر أتباعا وشيوخا، يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأولون "[9].

وعندما ظهرت حركة التجديد الحديثة في العالم الإسلامي. اهتمت اهتماما ملحوظا بتطهير العقيدة ومحاربة البدع والخرافات التي أصابت المجتمعات الإسلامية. ودعت إلى الرجوع إلى الإسلام في صفائه الأول حينما كانت العقيدة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين صافية نقية. واتباع السلف الصالح في فهومهم وتطبيقاتهم لها.

كانت هذه الثورة على البدع والخرافات لتطهير الدين مبدأ هاما من مبادئ حركة التجديد الإسلامي الحديثة التي كان من أقطابها محمد بن عبد الوهاب والشوكاني، والأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا وغيرهم. يقول محمد عبده: " إن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الدين بتنقيته من الخرافات والبدع التي طمست على عقول المسلمين وكان سببا في تأخرهم حتى أصبحوا سخرية الأمم الأجنبية "[10].

وقد كان المجتمع الجزائري غداة ظهور حركة التجديد الإسلامي يعج بالخرافات والبدع والأوهام التي عششت في عقول أبنائه ووجدانهم، وأقامت لها الطرق الصوفية[11] المنحرفة نفوذا واسعا في نفوس العامة التي كانت تعود إليها في دينها ودنياها خاضعة مستسلمة: " وآل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان. وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط... يتصف بأوصاف الربوبية، فهو الذي يعطي وهو الذي يقبض، وهو الذي يبسط وهو منبع كل خير ومصدر كل شر "[12]. ومما زاد من وطأة هذه الظاهرة على الجزائريين، تشجيع الاستعمار[13] لهذه الطرق واحتواؤه لها، ومناصرته لمظاهر البدع التي تقيمها، حتى يكرس بها جهل الأمة وتخلفها.

وبذلك، تردت الحالة الدينية في الجزائر إلى أسفل الدركات، ولم يعد الإنسان الجزائري يختلف في معاناته وسقوطه عن الإنسان الجاهلي، على الرغم من اختلاف وجهي المقارنة بينهما. فقد كان الجهل مخيما بظلامه على

العقول، ولم تكن هناك أصنام تعبد، بل حل محلها أضرحة الأولياء التي يتبرك بها العامة، فيتمسحون بأعتابها، ويكتحلون بترابها، ويقدمون لها القرابين، ويتوجهون إليها بالأدعية والتوسلات. وكان هناك مشائخ الطرق الصوفية الذين يعتقد فيهم الشعب القدرة على إتيان الخوارق والاتصال بالله وتحقيق الآمال وإنجاح الأعمال. وإلى جانب ذلك كله كان هنالك حشد كبير من الأوهام والخرافات التي نزلت بالعقل إلى الحضيض وحجبت عنه حقائق الوجود، وأعمته عن رؤية واقعه المزري، والوعي بذاته وتمييز عدوه.

ولعل هذا الواقع المظلم هو الذي حدا بمبارك الميلي إلى وصف هذه الفترة الزمنية بالجاهلية الحاضرة بعد جاهلية عصر الوحي، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حينما يقرر أنه: " لا فرق بينهما في الجهل بما ينافي التوحيد، ولا في الابتلاء بالمبتدعين والدجالين، ولا في التبرك بالآثار احتماء من الأقدار، ولا في التقرب من الأحجار، والنفور من المرشدين الأخيار، ولا في عصيان متخلفهم وعبادة ما نحتوه، ولا في افتراق الكلمة والانقسام إلى شيع متعادية"[14].

والدارس لتاريخ الجزائر الحديث لا يستغرب هذا الوصف ولا أكثر منه ويستطيع أن يكتشف الحالة المزرية التي آل إليها الشعب الجزائري في ظل هذه البدع، وقد وفق أحد كتاب البصائر إلى حد بعيد في تصويره حين قال: "مضى على هذه الأمة البائسة أحقاب طوال كانت تتخبط في ظلام من الحيرة كثيف لا ترى في تلك الأجواء المدلهمة الحالكة إلاّ غيوما من الأوهام متراكمة، وسحبا من الخيالات منتشرة... لا تدري وسيلة تقربها إلى ربها غير الفزع إلى سكان القبور ومستعمري الأضرحة، وإذا شعرت بضر مسها هرعت إلى الجدران المتداعية والأنقاض البالية، والمياه المتحجرة في النزى والحفائر[15] وألوان شتى من الأحجار والأشجار والجذوع والتماثيل داعية لها أن تكشف ما بها من ضر، تاركة الاهتداء بكتاب ربها الذي أضحى مقصورا على التعاويذ والرقيات " [16].

وقد أدركت جمعية العلماء خطورة هذا الظاهرة واستفحالها بين العامة الذين كانوا شديدي التمسك بها لاعتقادهم أنها من صميم الدين، مما ترك آثارا سيئة للغاية في المجتمع الجزائري. ويصف الإبراهيمي عمق المأساة التي طبعت الواقع الجزائري في ظل هيمنة الطرق الصوفية عليه بقوله: " إن هذه البدع والمنكرات التي يريد الإصلاح أن يكون حربا عليها هي أمور قد طال عليها الأمد وشاب عليها الوالد، وشب عليها الولد، وهي بعد شديدة الاتصال بمصالح ألفها الرؤساء حتى اعتبروها حقوقا لهم، وأنس بها العامة حتى اعتبروها فروضا عليهم"[17].

وبما أن الطرق الصوفية المنحرفة هي التي كانت قائمة على هذه الموجة من الأوهام والأضاليل، تغذيها وتنافح عنها، وتحرص على إبقائها وامتدادها فقد عدتها الجمعية هي: " علة العلل في الإفساد، ومنبع الشرور، وأن كل ما هو متفش في الأمة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل بكل شيء، وغفلة عن الحياة وإلحاد في الناشئة، فمنشؤه من الطرق "[18].

لذلك عملت الجمعية – منذ تأسيسها – على تشديد القبضة على هؤلاء المبتدعة. وتسفيه معتقداتهم في حملة منظمة قوية. بعد أن كان العلماء – قبل وجود الجمعية – يحاربون هذه الظاهرة بجهود فردية متفرقة[19]. وكان شعارها في ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم أن كل محدثة في الدين بدعة وكل بدعة ضلالة[20]. وقد جاء في البند الأول من البرنامج الذي سطره المجلس الإداري للجمعية بعد تأسيسها مباشرة مايلي: " تنظيم حملة جارفة على البدع[21] والخرافات والضلال في الدين بواسطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة. حتى في الأسواق والمقالات في جرائدنا الخاصة التي أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحية "[22].

ولعل هذه الحملة الواسعة والشديدة التي قادتها جمعية العلماء ضد البدع هي التي أشعلت فتيل الصراع بين رجال الإصلاح وزعماء الطرق الصوفية[23] الذين هزتهم بعنف صيحة العلماء فأحسوا بنفوذهم بتقلص وأركان زواياهم تتقوض وسلطاتهم ينهار رويدا رويدا تحت ضربات رجال الإصلاح.

وقد شهدت السنوات التي تلت تأسيس الجمعية حربا ضروسا استماتت خلالها العلماء في الدفاع عن صفاء العقيدة ونقائها. ومحاربة كل البدع التي أفسدتها، وتفانى رجال الطرق الصوفية في الذود عن نفوذهم العريض وحماية سلطاتهم الواسع الذي كانوا يستمدونه من غفلة الناس وجهلهم. وسجلت الصحف التي كانت تصدر خلال هذه المرحلة صور الصراع وبخاصة أثناء سنتي 1932. 1933. التي عرفت تصاعدا في درجات المواجهة وتراشقا صحفيا عنيفا بين الفريقين وانتقادات متبادلة.

وكانت من جملة الشبهات التي ركز عليها رجال الطرق الصوفية لتضليل العامة ورد هجمات المصلحين أنه: لو كان ما نحن عليه باطلا لأنكره العلماء المتقدمون قبل أن ينكره هؤلاء* العصريون *[24]، لكن العلماء المتقدمين – في زعمهم – عايشوا هذه البدع ولم ينكروها، ورأوها وسكتوا عليها ورضوا بها وتداولتها الأجيال. مما يدل على أنها لا تعارض الشرع ".

وقد تناول الشيخ عبد الحميد بن باديس[25] هذه الشبهة ورد عليها في هدوء ومنطق علمي مؤيد بالحجج القوية والشواهد التاريخية. وراح يتتبع سيرة العلماء المجددين ومواقفهم المنكرة للبدع والخرافات على مر العصور. فاستهل رده بذكر الإمام القشيري (ت 465 هـ) من أهل القرن الخامس. ثم الإمام أبي بكر الطرطوشي المالكي (ت 560 هـ) من أهل الخامس والسادس الهجريين، وأتبع ذلك بذكر الإمام أبي حيان الأندلسي (ت 745 هـ) من أهل السابع والثامن الهجريين، ثم تحدث عن الإمام أبي إسحاق الشاطبي المالكي (ت 790 هـ) من أهل القرن الثامن الهجري. ثم ذكر الإمام القلصادي المالكي (ت 891 هـ) من أهل القرن التاسع، وأتبعه بذكر الشيخ عبد الرحمن الأخضري الجزائري (ت 953 هـ) الذي عاش في القرن العاشر. ثم أشار إلى الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني

(ت 1073 هـــ) من أهل القرن الحادي عشر الهجري. وختم رده بذكر الشيخ محمد العروسي الذي عاش في القـرن الثالث عشر[26].

ويعقب الشيخ ابن باديس بعد هذا كله على أن عصور الإسلام كلها لم تخل من قائم لله بحجة[27]، ولم يغـب فيها صوت الحق. ولا يضير العلماء المصلحين بعد ذلك أن الفساد قد غلب والبدع قد طفـت علـى السـطح فحجبت أصوات الحق بسبب جهل عامة المسلمين وحكامهم، وجمود أغلب علمائهم. وهذا ينقض دعوى رجـال الطرق الصوفية، ويسفه حجتهم، ويقيم الدليل على أن ما يأتونه من أعمال منكر وباطل.

وقد شغلت هذه المعارك الصحفية [28] الناس مدة من الزمن، غير أن كفتها ما لبثت أن رجحـت للجمعيـة، حيث استطاع العلماء بما أوتوا من علم واسع وحجة قوية، وقدرة على الإقناع، وهدوء في الحوار والمجادلة المستندة إلى الكتاب وصحيح السنة أن يكتسحوا الساحة ويقهروا رجال الطرق الصوفية الذين تراجعوا، وفقدوا امتيازاتهم، وانفضت من حولهم جموع الشعب التي كانت تقصدهم من كل حدب وصوب.

وقد رابطت الجمعية على هذا الثغر لمدة طويلة، وظلت تذود عن حياض العقيدة الصحيحة، وتكيل الضربات للمبتدعة والدجالين لاعتقادها أن تجديد العقيدة وحمايتها مما يلحق بها من بدع وخرافات هي وظيفة من أهم وظائف علماء الإسلام الذين كانوا على مر العصور حربا عليها: " وكانوا أيقاظا لكل حدث يحدث في الإسـلام وكـانوا كلما رأوا شبح بدعة خفوا إلى إزالتها، وكلما أحسوا بضلالة ومنكر في الدين بادروا إلى تغييره بالفعل والقـول، يجسم لهم الاحتياط الصغائر فيعاملونها معاملة الكبائر لا يتساهلون ولا يترخصون سدا لذرائع الفتنة والضلال "[29].

وعندما يغفل العلماء عن أداء هذه الوظيفة، ويتساهلون في حرب المنكر ينشط أهل الابتـداع، ويتعـرض جوهر الدين للتشويه والتحريف: " فإذا قصر أهل الحق في الدعوة إليه ضاع الدين، وإذا لم يحموا سـننه غمرتهـا البدع، وإذا لم يجلوا محاسنه علتها الشوائب فغطتها، وإذا لم يتعاهدوا عقائده بالتصحيح داخلها الشـك ثم دخلـها الشرك "[30].

وكان طبيعيا أن يؤتي هذا الجهد التجديدي الجبار الذي ساندته الإرادة المخلصة والإيمـان القـوي بـالمبدأ والكفاءة العلمية أكله، وأن تظهر ثمارد يانعة في المجتمع الجزائري، حيث نجحت الجمعية في القضاء على معظم البدع التي كانت فاشية بين الناس: " كبدع المساجد، وبدع الجنائز، وبدع المقابر، وبدع الحج، وبدع الاستسقاء، وبـدع النذور" [31]. وتمكنت من توجيه ضربة قوية إلى رجال الطرق الصوفية المنحرفة الذين انكشفت عوراتهم، وسـقطت هيبتهم، وانفض الناس حولهم، كما نجحت أيضا في تحرير الفرد الجزائري من أسر الخرافات والأوهـام، وإبدالـه بالعقلية الأسطورية المتخلفة، ذهنا متفتحا متنورا وعقيدة صحيحة تدفعه إلى العمل الصالح والتغيير الواعي المثمـر. يقول الإبراهيمي موضحا ذلك: "ونجحت الجمعية... نجاحا جليا مشهودا ظهرت آثاره للعيان... في تصحيح عقـائد

الأمة الجزائرية وتطهيرها من شوائب الشرك القولي والعملي التي شابتها. فصحت العقائد وصحت لصحتها الإيرادات والعزائم"[32].

ومما يؤكد ذلك، أن جمعية العلماء بعد مرور حوالي خمسة عشر عاما من تأسيسها خففت من وطأة الهجوم العنيف الذي استهدفت رجال الطرق والبدع الدينية والأوهام التي كانوا يروجون لها. بعد أن تبين لهم أن أكثر القلاع التي كان المشعوذون يحتمون بها ويستغلون من خلالها العامة الساذجة قد يقول. الإبراهيمي موجها حديثه إلى وعاظ جمعية العلماء الذين سيتولون إلقاء الدروس خلال شهر رمضان المعظم وذلك عام 1951: " وعليهم أن يجتنبوا الحديث في مثارات الفتن. وفي البدع التي فرغت جمعية العلماء منها. فقد ضعف شأنها وفي إعادة الحديث عليها تقوية لها وإحياء"[33].

ثانيا: نقد مناهج المتكلمين والفلاسفة

وكما ثارت جمعية العلماء على البدع والضلالات التي حجبت صفاء العقيدة الإسلامية وأذهبت منها الفعالية والقوة. كذلك كان موقفها من المتكلمين والفلاسفة الذين تناولوا العقيدة من الناحية العقلية ،وأخضعوها للأقيسة المنطقية ،وعملوا على تحكيم العقل في الأمور الغيبية التي لا قدرة له عليها. وشغلوا أنفسهم بمسائل لم تكن واردة عند الجيل الأول من الصحابة: كمسألة الذات والصفات ومسألة خلق القرآن. والبحث في جزئيات الحياة الآخرة. وهل الجنة والنار مخلوقان سابقا أم أنهما ستخلقان. وفي العرش والكرسي وأيهما أقدم. وهل يرى الله في الآخرة أم أن ذلك مستحيل. ومسألة الآيات المتشابهات كالاستواء على العرش. ونسبة الوجه واليد والإتيان والنزول إلى الله[34].

هذه المسائل الشائكة وغيرها كثير هي التي تناولها علم الكلام[35]. وقد أثارت جدلا عنيفا بين المتكلمين والفلاسفة. ومعارك كلامية كبيرة. وصار همهم الأول التفنن في إيجاد أنواع الجدل وطرائق الاستدلال العقلية لنقض حجج خصومهم وإثبات صحة آرائهم. وباتساع هوة الخلاف بين المتكلمين اتسعت الشقة بينهم وتفرقوا شيعا وأحزابا. وشهدت الساحة الإسلامية ميلاد مجموعة كبيرة من الفرق التي تركت بصماتها في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي. ومنهم الأشاعرة والمعتزلة والشيعة والجهمية والخوارج والمرجئة والقدرية والجبرية ومدرسة أهل الحديث[36].

ومما لا شك فيه أن منهج الفلاسفة والمتكلمين في تناول العقيدة قد أثر فيها تأثيرا عميقا. وأبعدها عن مجالها الحقيقي الذي هو النفس البشرية إلى مجال المماحكات اللفظية والجدالات الفلسفية. فبعد أن كانت شعورا حيا يغمر الإنسان فيوجه طاقاته نحو الخير والصلاح ويملأ جوانبه بالرغبة في الله والرهبة منه والطمع في جزائه والخوف من عقابه. وبعد أن كانت دافعا إلى تعمير الأرض والجهاد لتخليص العباد من العبودية لغير الله. تحولت إلى مقالات

فلسفية جامدة يتبادلها الخصمان. ليس فيها ما يثير الوجدان أو يصلح الأخلاق أو يهذب السلوك أو يسمو بالنفس. أو يطهر القلب من المعاصي أو يحث على الخير. مما جعل العقيدة تفقد حيويتها وفعاليتها وسموها في ذلك الوسط الجاف الذي يعطي الأولوية للاستدلال العقلي.

وهذا أحد الأسباب الذي جعل العقيدة يختلف تأثيرها في الأجيال اللاحقة على تأثيرها في الجيل القرآني الأول الذي أخذها عن الرسول صلى الله عليه وسلم بأصولها القرآنية. وفهمها وفق المعهود من أساليب العرب في كلامهم. فآمن بالله الواحد الأحد المنزه عن الشرك، وبأنبيائه وبخاتم رسله وبالحساب في حياة أخرى. ولم يفكر الصحابة في جزئيات هذه العقائد. ولم يتعرضوا لماهيتها. بل: " صرفوا جهودهم إلى المسائل العملية فانتجوا فيها فكرا تشريعيا عمليا رائعا. وحققوا انتصارات إسلامية عظيمة في الميادين الداخلية والخارجية. حيث نقلوا الإسلام إلى العالم فهدوا به أمما وشعوبا ورفعوا راية الحق والعدل والخير والسلام والتوحيد في بلاد شاسعة"[37].

فلما انتقلت العقيدة إلى التنازع الكلامي والجدل العقلي بتأثير طلائع الثقافات الأجنبية التي دخلت المجتمع الإسلامي ودفعت المفكرين المسلمين إلى الخوض في الحديث في جزئيات العقائد الإسلامية، اهتز الإيمان في القلوب. وتزعزع في النفوس. ولم تعد ذلك التيار الحي المتوثب الذي يوجه الفرد ويسيطر على سلوكه. وضعف تأثيرها في الفرد المسلم. فتبع ذلك ضعف عام في الأسرة وفي المجتمع، وفي كل جانب من جوانب الحياة العامة. وبخاصة في القرون الأخيرة حتى أصبحت الأمة عاجزة عن النهوض بتبعاتها والاضطلاع بمسؤولياتها الحضارية. وفقدت فعاليتها الاجتماعية.

ومما لاشك فيه أن علماء الجمعية قد اطلعوا على ما خلفه المتكلمون والفلاسفة من مباحث في العقائد الإسلامية. كما وقفوا على البصمات السود التي تركتها النزاعات والخلافات الفلسفية الكلامية في تاريخ الأمة الإسلامية. فتبين لهم أن تجديد العقيدة يتطلب منهم تجاوز كل ما تمخض عن هذه الحركة الفكرية من إنتاج عقلي فلسفي. والاتصال المباشر بالكتاب والسنة. والاعتماد على طريقة السلف الصالح في فهم العقيدة.

وانطلاقا من هذا المبدأ انتقد علماء الجمعية مناهج المتكلمين في التعامل مع العقيدة. وحاولوا من خلال جهودهم في تجديدها أن يكشفوا سلبيات هذه الطرائق الفلسفية. ويبينوا ضررها على المسلمين وأثرها السيئ في عقائدهم. فقد عزا عبد الحميد بن باديس انتشار الجهل بين المسلمين. وعجز الطلبة – في القرون المتأخرة – عن استيعاب العقائد الإسلامية إلى الاعتماد على علم الكلام في التعليم مع كل ما يتضمن من مصطلحات غامضة ومناقشات فلسفية معقدة: " أما الأعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده، وهم في أشد الحاجة إليه "[38].

وهو يرى أن أسلم طريق لأخذ العقيدة هو تلقينها للمسلمين من القرآن الذي بسطها وقربها من العقل والنفس. بدل اللجوء إلى علم الكلام الذي لا يجدي نفعا في هذا المجال: "بسط القرآن عقائد الإيمان بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا: تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها الصعبة مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة "[39].

وينحو الإبراهيمي النحو نفسه، حين يقرر أنه مما يتصل بأمراض المسلمين علم الكلام الذي شغل الناس عن القرآن والسنة الصحيحة، وأدخلهم في متاهات الاستدلال العقلي الذي أورثهم ضعف وفساد الأخلاق والأعمال: " إن هذه القواعد الجافة التي لا صلة بينها وبين الناس إنما تنفع في الصناعات الدنيوية. أما في الدين فإنها لا تغني غناء، وقد أفسدته منذ أن أصارها الناس عمدة في فهمه حتى ضعف إيمانهم وضعفت تبعا له إرادتهم وأخلاقهم. وكيف يفلح من يعدل في تفهم الإيمان عن الآيات المتقدمة إلى قولهم إن الإيمان هو التصديق وأن النطق شرط أو شطر فيه... إلى آخر القائمة؟ وكيف يكون مؤمنا (حقا) من يبني إيمانه على هذا الجرف الهاري؟ "[40]. بل إنه يرى أن معرفة علم الكلام وتعلمه يدخل في باب إعنات النفس وتضييع الوقت فيما لا يجدي[41].

ولعل الإبراهيمي يعد من أكثر علماء الجمعية اهتماما بموضوع علم الكلام وانتقادا لمناهج المتكلمين، حيث تناول هذه القضية بالبحث والتحليل في مبحث تطرق فيه إلى أسباب تفرق المسلمين وعزاه بشكل عام إلى ظهور علم الكلام ونشوء التعصب المذهبي الفقهي وانتشار الطرق الصوفية.

فهو يرى أن علم الكلام إنما دخل الفكر الإسلامي عن طريق الفلسفة اليونانية، وذلك بعد اتساع الفتوحات الإسلامية ونشاط حركة الترجمة. فهذه الفلسفة هي التي أثارت قضية البحث في الإلهيات على الطريقة العقلية الصرفة بما غذت به: " المتكلمين من الأنظار المختلفة وأمدتهم به من طرائق الجدل وقوانينه "[42].

والمتتبع لنشأة علم الكلام يجد أن ظهوره أول الأمر كان يهدف إلى مواجهة الغزو الفكري الذي مارسته الفلسفات الدخيلة ضد العقائد الإسلامية، حيث انبرت مجموعة من علماء المسلمين لرد الشبهات عن الإسلام مستخدمين في ذلك قواعد الفلسفة اليونانية في الجدل والمنطق وتحكيم العقل، ولكنهم ما لبثوا أن انساقوا وراء هذه الوسائل حتى تورطوا في مسائل التأويل وتمجيد الأحكام العقلية على حساب النصوص النقلية. يقول الإبراهيمي: "وغلت طوائف أخرى في تمجيد العقل واستشرف إلى ما وراء الحدود المحددة له، وتسامى إلى الحظائر الغيبية فتشعبت به السبل عن الحق في معرفة الله وتوحيده، ونجمت لذلك ناجمة علم الكلام وما استتبعه من جدل وتأويل وتعطيل، وتشابهت السبل على عامة المسلمين لكثرة هذه الطرائق، فكان هذا التفرق الشنيع في الدين أصوله وفروعه "[43].

وإذا كان بعض الدارسين يرى أن علم الكلام قد أدى خدمة جليلة في زمنه للعقيدة الإسلامية عندما حفظها: " من الشرك والانحرافات الخطيرة وغلبة العقلية الخرافية وإنكار دور العقل في فهم النصوص والكشف عن منطقها الداخلي" [44]. وأن إنكار دوره الإيجابي في تاريخ الفكر الإسلامي خطأ واضح فإن الإبراهيمي يرى أنه كان سبب هاما من جملة الأسباب التي فرقت المسلمين بما أثاره من قضايا الإلهيات والعقائد.

وفي ضوء المراجعة التي قام بها الإبراهيمي للتراث الحضاري الإسلامي خرج بنتيجة مفادها أن الفكر الإسلامي قد خسر بوجود علم الكلام أكثر مما ربح، لأنه شغل نخبة هامة من علماء الإسلام الأفذاذ. وصرف جهودهم إلى الجدل الفارغ والمناظرات العقيمة التي لا تسفر في كل الأحوال عن منتصر أو منهزم: " لو كان هذا العلم المستحدث ذا قواعد طبيعية لا تنقض كقواعد الحساب أو الهندسة مثلا لخف ما يلقى الناس في تعلمه من عناء، ولكننا رأينا تلك القواعد تتهاوى في المناظرات القولية أو القلمية كفقاقيع الماء فلا يكاد يبني الباني حتى ينبري له هادم ينقض ما بنى ويتبر ما علا "[45].

وتمنى لو أن هؤلاء العلماء استغلوا ذكاءهم وعبقريتهم في ميادين علمية أخرى لزاد ذلك في الفكر الإسلامي ثراءً عظيما: " ويح لو أن تلك الجهود التي تفرقت على الكلام تألفت على جهة أخرى لفتحت في العلم فتحا أغر زاهرا ولتعجلت به الفخر للإسلام وأهله "[46]. وهو يأسف لضياع جهود العلماء المسلمين في مباحث علم الكلام فيقول: " واحسرتاه على ذلك الذكاء الذي كانت تكاد تنشق له حجب الغيب. ذكاء أبي بكر الباقلاني وفخر الدين الرازي، وأبي الهذيل وابن المعلم. وقدضاع فيما لا تعود على الإسلام منه عائدة ولا تنجر منه فائدة"[47].

وانطلاقا من اقتناعه الرافض لهذا العلم الذي انقرض وأصبح بمناهجه ومصطلحاته ونتائجه مواد متحفية لا قيمة لها ولا تأثير في فكرنا المعاصر. فقد انتقد بشدة تدريسه في الكليات الإسلامية، وعاب على المسؤولين عن التعليم تضييع أوقات الطلبة في اجترار هذا التراث الذي لم يعد هناك سبب لإحيائه وشغل الأذهان به. وتجديد الخلافات التي مزقت وحدة المسلمين: " ومن المحزن أن دراسة علم التوحيد حتى في كلياتنا (الراقية) كالأزهر والزيتونة لا تزال جارية على تلك الطرائق وفي تلك الكتب. ولا تزال تقرر فيها تلك الآراء ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود. ويستعرض سيدنا المدرس تلك الآراء ثم يدحضها ثم يقيمها ثم ينقضها. وتقطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك. ويا ضيعة الأعمار"[48].

وكان الأولى بهذه الكليات – في نظره – أن تطوي صفحات تاريخ علم الكلام ومعاركه. وتلتفت إلى عصرها الحديث فتسايره بمواجهة الفلسفات المادية الحديثة التي غزت ديار المسلمين، وشككت في عقائدهم وبلبلت أفكارهم. وأن تعود إلى الأصول الأولى للإسلام التي هي الكتاب والسنة فتبني عليها معتقداتها وأفكارها وتنطلق

منهما لتحدد موقعها في هذا العالم الذي تتصارع فيه الأفكار والنظريات. لتثبت جدارة العقيدة الإسلامية بالبقاء، وقوتها وفعاليتها في ممارسة وجودها: " أما الشبهات التي يوردها كل يوم ملاحدة العصر ومبشرو المسيحية على الإسلام. ويفتنون بها العلماء فضلا عن العوام. فإن كلياتنا (العلمية الدينية) ومدرسيها لا يعيرونها أدنى اهتمام. ولا يعمرون بها وقت الطلبة. فيا للفضيحة"[49].

ولم يكن الإبراهيمي هو أول من أدرك خطورة إحياء علم الكلام وآثاره السلبية في تجديد الخلافات التاريخية بين المسلمين اليوم. فقد سبقه إلى ذلك عبد الرحمن بن خلدون حينما أكد أن علم الكلام قد استنفد أغراضه ولم تعد للأمة حاجة إليه. وقرر أن: " الملحدة والمبتدعة انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا. والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا. وأما الآن فلم يبق منها إلاّ كلام تنزه الباري عن كثير إبهاماته وإطلاقه "[50].

وهذا الخط الفكري – في الحقيقة – هو امتداد لمواقف أهل السنة والجماعة ومسايرة للتيار السلفي الذي شكل جبهة معارضة لعلم الكلام منذ نشأته. ويبدو ذلك واضحا فيما أثر عن الإمام مالك بن أنس، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل[51]. في معارضتهم لتعاطي علم الكلام والخوض في مسائله.

وكانت جمعية العلماء تتبنى مذهب الإمام مالك في الفقه والعقيدة. والذي يقوم على الإيمان بما جاءت به نصوص الكتاب والسنة متجنبا التأويل والجدل الذي تستعمل فيه البراهين العقلية. وأوضح دليل على ذلك مقولته المشهورة في الرد على من أثار إشكالية الاستواء والعرش في قوله تعالى: { على العرش استوى }[52]. حيث قال: " الاستواء منه معلوم، والكيف منه. غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب "[53].

اعتماد منهج القرآن والسنة في تقرير العقيدة

وفي ضوء هذا التصور الإسلامي الواضح الذي يرفض البدع والخرافات ويتجاوز المناهج الكلامية والفلسفية. عملت جمعية العلماء على تجديد العقيدة من خلال العودة المباشرة إلى القرآن والسنة باعتبارهما المصدرين الأساسين اللذين بسطا العقائد الإسلامية وأوضحا معالمها وبينا أسسها.

فقد بسط القرآن العقيدة الإسلامية معتمدا على لفت الأنظار إلى ملكوت السماوات والأرض. وإيقاظ العقول للتفكير في آيات الله. وتنبيه الفطر إلى ما غرس فيها من شعور بالتدين. وإحساس بوجود قوة كبرى أحدثت هذا العالم.

وهذا المنهج على بساطته ويسره هو الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم في المجتمع الجاهلي. وظل قائما عليه حتى أنابت النفوس إلى ربها واستجابت القلوب لنداء الفطرة فأسلمت وجهها لله. وعلى هدي هذا المنهج أيضا تربى الصحابة رضوان الله عليهم. فلم يكونوا يتعمقون في مسائل العقائد. ولم يجنحوا إلى تأويلها تأويلا بعيدا.

وكانوا يقفون في تفسير آيات الصفات عند ظاهرها دون تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل. كما كانوا يكتفون في تبيان أصول العقائد الإسلامية وإثباتها بالأدلة القرآنية وفق المنهج النصي الذي يتبع العقل فيه النقل. وساروا على ما سار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من الاهتمام بما أمر الله سبحانه وتعالى به، وترك ما نهى عنه. فكان اهتمامهم موجها إلى الأحكام العملية ولم يتعرضوا لشيء من الأصول الاعتقادية.

وقد تحدث عبد الرحمن بن خلدون عن عقيدة السلف الصالح واكتفائهم بما ورد في القرآن وما أثر عن نبيه، وعدم خوضهم فيما دون ذلك فقال: " وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم (اقرؤوها كما جاءت) أي آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والإذعان له "[54].

ويؤكد المقريزي ذلك حين يقرر أن الصحابة رضي الله عنهم لم يؤثر عن أحدهم

- على كثرتهم - أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن آيات الصفات ولم يكونوا يفرقون بين آيات ظاهرها التشبيه وأخرى ظاهرها التنزيه بل كانوا يقبلون كل ما جاء به القرآن لأنه حق وصدق: " ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد عليه الصلوات والتحيات بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات. نعم، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة وساقوا الكلام سوقا واحدا... ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله وعلى إثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام سوى كتاب الله ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ومسائل الفلسفة فمضى عصر الصحابة على ذلك "[55]. وهذا المنهج السلفي هو الذي اعتمدته جمعية العلماء في تلقين العقيدة منذ تأسيسها.

فقد اتبع علماؤها الطريقة السلفية في تعليم أصول العقائد الإسلامية، وكانوا يستدلون عليها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه، واقتداءا بسيرة السلف الصالح في الاعتقاد. يقول الإبراهيمي في تصديره لكتاب "العقائد الإسلامية" متحدثا عن منهج جمعية العلماء في تدريس العقيدة: " فمن مبادئها التي عملت لها بالفعل لزوم الرجوع إلى القرآن في كل شئ لاسيما ما يتعلق بتوحيد الله، فإن

الطريقة المثلى هي الاستدلال على وجود الله وصفاته وما يرجع إلى الغيبات لا يكون إلا بالقرآن. لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله وإثبات ما ثبت له ونفي ما انتفى عنه لا يكون إلا بآية قرآنية محكمة "[56].

وكان حاديها في ذلك أن في الكتاب والسنة الغنى عن كل مصدر آخر لمعرفة الله عز وجل وإثبات توحيده وصفاته وأسمائه الحسنى. وأن طريقة القرآن في تقرير العقيدة لا تعادلها طريقة أخرى في بساطتها وعفويتها وحسن مدخلها إلى النفوس. على عكس ما هو شائع في طرق المتكلمين من إجهاد للعقل وإعنات للفكر: " فتوحيد الله مقرر في القرآن بأجلى بيان وأكمل برهان وصفاته لا يطمع طامع أن يأتي في إثباتها بأكمل مما أتى به القرآن. وطريقة القرآن في التنزيه أقوم طريقة وقد جرى عليها الصحابة فكانوا أكمل الناس توحيدا، مع أنهم لا يعرفون الجوهر والعرض. وهل يبقى زمانين. ولا الكم ولا الكيف بمعانيها الفلسفية الدقيقة "[57].

وسيرة السلف الصالح أوضح دليل على ذلك. فقد كانوا أئمة في الهدى والتقى والصلاح وكانوا العصبة الطيبة التي اختارها الله لتحمل مسؤولية إقامة أول مجتمع إسلامي نموذجي في العالم. فضربوا أروع الأمثلة في الكفاءة والأمانة، مع أنهم لم يخوضوا في مسائل علم الكلام والفلسفة. ويؤكد الإبراهيمي ذلك قائلا: " أقام سلفنا الصالح دين الله كما يجب أن يقام. واستقاموا على طريقته أتم استقامة. وكانوا يقفون عند نصوصه من الكتاب والسنة، لا يتعدونها ولا يتناولونها بالتأويل. وكانت أدواتهم لفهم القرآن، روح القرآن وبيان السنة ودلالة اللغة والاعتبارات الدينية العامة. ومن وراء ذلك فطرة سليمة وذوق متمكن ونظر سديد وإخلاص غير مدخول واستبراء للدين قد بلغ من نفوسهم غايته. وعزوف عن فتنة الرأي وفتنة التأويل "[58].

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس من أبرز علماء الجمعية في اتباع هذا المنهج. ومن أشدهم تمسكا به. ومن أكثرهم اهتماما بترسيخه في العقول والقلوب. لأنه كان يؤمن أن القرآن قادر بما فيه من الأدلة القوية والشواهد المؤيدة التي تقنع العقل وتطمئن النفس على إصلاح النفوس التي انحرفت وزاغت، وتطهير القلوب التي أعمتها المعاصي وغطى عليها الجهل.

وكان يدعو العلماء المسلمين الذين شغلهم علم الكلام، وشغفوا بطرق الاستدلال العقلي أن يستطلعوا معالم العقيدة من القرآن الكريم ويستنبطوا أدلتها الماثلة في سوره وآياته. ويبدو أن الاقتناع بضرورة أخذ العقيدة من القرآن والسنة كان شعورا متمكنا في أعماقه منذ سن مبكرة بشهادة الإبراهيمي الذي يقول: " والإمام رضي الله عنه كان منذ طلبه للعلم بتونس قبل ذلك – وهو في مقتبل الشباب – ينكر بذوقه ما كان عليه مشائخه من تربية تلامذتهم على طريقة المتكلمين في العقائد الإسلامية، ويتمنى أن يخرجهم على الطريقة القرآنية السلفية في العقائد يوم يصبح معلما "[59].

وقد طبق هذا المنهج الذي آمن به عمليا عندما تصدى للتعليم في الجامع الأخضر بقسنطينة فلقن طلبه أصول العقائد الإسلامية كما بسطها القرآن الكريم ووضحتها السنة الشريفة. وظل على هذه الحال طيلة سبع وعشرين سنة تخرج أفواج المتعلمين على هذه الطريقة السلفية ويبني عقائدهم كما كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم. يقول الإبراهيمي: " وقد بلغه الله أمنيته فأخرج للأمة الجزائرية أجيالا على هذه الطريقة السلفية قاموا بحمل الأمانة من بعده ووراءهم أجيال أخرى من العوام الذين سعدوا بحضور دروسه ومجالسه العلمية. وقد تربت هذه الأجيال على هداية القرآن فهجرت ضلال العقائد وبدع العبادات. فطهرت نفوسها من بقايا الجاهلية التي هي من آثار الطرائق القديمة في التعليم "[60]. وجمعت هذه الدروس فيما بعد في كتاب يحمل عنوان (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية).

ويوضح عبد الحميد بن باديس منهجه في تقرير العقيدة قائلا: " أدلة العقائد مبسوطة في القرآن الكريم بغاية البيان. ونهاية التيسير. وأدلة الأحكام وأصولها مذكورة كلها فيه. وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسل ليبين للناس ما أنزل عليهم فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية. وأدلة تلك العقائد من القرآن الكريم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم... ولن يجد العامي الأدلة لعقائد سهلة قريبة إلا في كتاب الله. فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه "[61].

وهذا نموذج من دروسه التي كان يلقيها على طلبته في الجامع الأخضر. ويوضح منهجه في تدريس العقيدة. وهو يتحدث عن إثبات الوحدانية لله تعالى: " وهو الواحد في ذاته. وأسمائه وصفاته. وأفعاله. فلا ثاني له. ولا نظير له. ولا شريك له في ذاته. ولا ثاني له. ولا نظير له. ولا شريك له في أسمائه. ولا ثاني له. ولا نظير له. ولا شريك له في صفاته. ولا ثاني له. ولا نظير له. ولا شريك له في أفعاله. لقوله تعالى :{ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون }[62].{ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون }[63]. { هل من خالق غير الله }[64]. { هل تعلم له سميا }[65]. { ليس كمثله شيء }[66]. { قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد }[67] "[68].

وقد نوه الإبراهيمي في تصديره لكتاب (العقائد الإسلامية) بطريقة ابن باديس المثلى في تدريس العقيدة. وأشاد بآثارها الحميدة في النفوس بالنظر إلى ما يتركه القرآن الكريم من أثر طيب في تربية الإنسان على عكس مناهج المتكلمين الجافة قائلا: " وهذا درس من دروسه ينشره اليوم في أصل العقيدة الإسلامية بدلائلها من الكتاب والسنة تلمذه الصائغ كاسمه[69]: فجاءت عقيدة مثلى يتعلمها الطالب فيأتي منه مسلم سلفي. موحد لربه بدلائل

لقرآن كأحسن ما يكون المسلم السلفي ويستدل على ما يعتقد في ربه بآية من كلام ربه. لا بقول السنوسي[70] في عقيدته الصغرى: أما برهان وجوده تعالى فحدوث العالم"[71].

ولئن آثر ابن باديس هذا المنهج في تلقين العقيدة، فإن ذلك لا يعني أنه كان عاجزا عن استخدام طرائق المتكلمين ومناهج الفلاسفة في إثبات العقائد الإسلامية. فقد شهد له كل من عرفه بسعة العلم والتبحر في مختلف المعارف، حيث أتاه الله عقلا نيرا، وقريحة وقادة، وحافظة عجيبة. وكان باستطاعته أن يخوض فيما خاضوا فيه وأن يأتي بالجديد في هذا العلم، لكن رؤيته الواضحة للواقع الجزائري، ووعيه بالدور الحضاري الذي يجب أن تلعبه حركة التجديد الإسلامي في الجزائر وإيمانه العميق بعدم جدوى هذا الأسلوب في تحقيق الأهداف المرجوة، جعله يعدل عنه، ويستبعده تماما من نشاطه الحركي. ويركز بصفة أساسية على الطريقة السلفية.

وقد بنى أمره في كل ذلك على ضرورة إيقاظ الأمة الجزائرية من تخلفها الحضاري وتخليصها من آفات الجهل والكسل والتواكل، وشعور اليأس والإحباط الذي قتل فيها إرادة الحياة والعمل للمستقبل. وقد تبين له ولإخوانه العلماء أن هذا المنهج في تجديد العقيدة هو الأضمن والأسلم وهو الذي سيؤتي ثماره في النفس الجزائرية، والتي كانت بحاجة ماسة إلى من يدفعها إلى العمل الذي يعيد لها فعاليتها الاجتماعية أكثر من حاجتها إلى مجالس تسرد فيها النظريات الفلسفية والخلافات. وهذا هو الذي كان. فقد فعلت هذه الطريقة البسيطة والناجحة في آن واحد فعلها، ونفضت أجيال كثيرة من أبناء الجزائر عنها غبار التخلف والركود، وطهرت نفوسها من أدران البدع والخرافات وأقبلت على الحياة بروح جديدة وعقيدة صحيحة صافية، واقتحمت ميادين العمل بعد أن غرفت من العلم، وذلك ما كان يرمي إليه ابن باديس وإخوانه العلماء حينما رابطوا في المساجد والنوادي والمدارس والتجمعات العامة في سبيل تجديد عقيدة هذه الأمة.

ولم تكتف جمعية العلماء في عملية تجديد العقيدة في المجتمع الجزائري بمواجهة التحديات الداخلية، كانتشار البدع والخرافات، وسيطرة العقلية الأسطورية، وغلبة مناهج الفلاسفة والمتكلمين في تدريس العقيدة، بل امتد نشاطها إلى مواجهة التحديات الخارجية، وذلك بالتصدي للشبه العقدية الحديثة التي وردت على العالم الإسلامي بتأثير الهجمة الحضارية الغربية على المسلمين في العصر الحديث، والتي تتمثل أساسا في الحركة التنصيرية والموجة الإلحادية، والدعوات الهدامة وسموم الاستشراق التي غزت الجزائر في ركاب الاستعمار الفرنسي، مستهدفة تشكيك المسلم الجزائري في عقيدته، وإخراجه من دائرة الإسلام إما إلى النصرانية أو الإلحاد.

وقد كان علماء الجمعية يدركون أبعاد الصراع الحضاري القائم بين المسلمين وأعدائهم ويعون شراسة الهجمة التي يتعرضون لها: " ولم يمض عليهم زمن تألبت فيه قوى الشر عليهم وتألفت جنود على ما بينها من دعوات ومناقضات كما تألبت في هذا الزمن، فالأديان اليهودية والمسيحية الغربية الاستعمارية والبوذية والوثنية بجميع

ألوانها والمذاهب الاجتماعية المادية كلها أصبحت إلبا على المسلمين والإسلام متداعية إلى ذلك عن قصد واتفاق، صادرة في ذلك عن عهد وميثاق يسند بعضها بعضا ويقرض بعضها بعضا العون والتأييد"[72].

لذلك وجهوا جهودهم نحو هذه الوجهة في سبيل حماية المجتمع الجزائري من موجات الغزو الفكري التي كانت ترد على ديار المسلمين. وتحصينه حضاريا حتى لا يقع في شباكها. وكانوا يرون أن هذه المسؤولية الثقافية توازي في أهميتها وخطورتها مسؤولية الجندي المسلح الذي يرابط على الثغور لحماية حياض وطنه: " إذا كان المرابطون في الثغور يقفون أنفسهم لصد الجنود العدوة المغيرة على الأوطان الإسلامية، فإن وظيفة العلماء أن يقفوا أنفسهم لصد المعاني العدوة المغيرة على الإسلام وعقائده وأحكامه. وهي أفتك من الجنود. لأنها خفية المسارب، غرارة الظواهر سهلة المداخل إلى النفوس. تأتي في صورة الضيف فلا تلبث أن تطرد رب الدار"[73].

وسنكتفي هنا بالحديث عن حركتين برزتا بشكل واضح في المجتمع الجزائري في العصر الحديث وهما: الحركة التنصيرية. والتيار الإلحادي.

مقاومة الحركة التنصيرية :

لقد كان الاجتياح الفرنسي للجزائر عام 1830 يحمل بين طياته – بالإضافة إلى الطمع في الثروة والرغبة في التوسع – أهدافا صليبية أكيدة. بدت مظاهرها واضحة في وفود جماعات هامة من القسس والرهبان مع الجيش الفرنسي ترافقه في حله وترحاله. وتمهد لحملة صليبية شرسة على الشعب الجزائري. فقد كتب قائد جيش الاحتلال عام 1830 إلى القسيس الذي رافقه في حملته كتابا يقول فيه: " إنكم جئتم معنا إلى هنا لتفتحوا من جديد أبواب المسيحية في إفريقيا"[74].

فقد أدرك الاستعمار – منذ البداية وهو الذي كان يطمع في البقاء بأرض الجزائر إلى الأبد – أن إخضاع السكان عسكريا. وإشاعة الرعب بينهم ليس كافيا لتثبيت أقدامه. ولن يوفر له الأمن والاستقرار، مادام سكان البلاد يعتزون بانتمائهم إلى حضارة غير حضارته.

والمتتبع لتصريحات القساوسة والرهبان الذين صحبوا الجيوش الفرنسية الغازية، يكتشف عن مدى الحقد الدفين تجاه الإسلام وأهله، ويدرك أبعاد الخطة الصليبية التي كانت ترمي إلى تنصير الجزائريين، حيث يقول (لوفيميو) كاتب الجنرال (بيجو)[75]: " إن العرب لا يطيعون فرنسا إلاّ إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلاّ إذا أصبحوا مسيحيين"[76].

وفي سبيل ذلك تولى الكاردينال (لافيجري)[77] مهمة نشر المسيحية على نطاق واسع في الجزائر، ووضع نصب عينيه هدفا محددا، عبر عنه بقوله: " علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الانجيل... تلك هي رسالتنا"[78].

وأخطر ما قام به هو تأسيس رهبانية (الآباء البيض)[79] التي قامت بحركة تنصيرية واسعة النطاق وكان مركزها الرسمي يقع بالحراش في العاصمة. واستطاعت هذه الجمعية حتى عام 1930 أن تنشئ ستة وعشرين معهدا دينيا، منها إحدى وعشرون معهدا في شمال إفريقيا، وخمسة معاهد في فرنسا وأن تقيم مائة وثلاثة وثلاثين مركـــزا للتنصـــير. وزعت عليهم خمسمائة راهب وراهبة[80]. كما أنشأ الكاردينال لافيجري أيضا الأديرة، ودور الأيتـــام، والمـــدارس المهنية، وأسس جمعية الكشافة الكاثوليكية، وجعل كل ذلك تحت إشراف المنصرين.

وقد بذل هذا الكاردينال مجهودات جبارة في سبيل تحقيق أهدافه التي جاء من أجلها إلى الجزائر. فقام: "تنصير عدد كبير من الأولاد اليتامى، ضحايا المجاعة والتشرد والفقر. فأرسل إليه وزير الحربية الماريشال نيل في 28 آيـــار 1868، رسالة يبارك فيها عمله ويجعله مطمئـــنا إلى أنه ليس في وارد فرنسا أن تحـــد مـــن حقوقـــه وصلاحياتـــه كأسقف"[81].

وكان استغلال الواقع البائس للجزائريين لاستدراجهم نحو التنصير أحد العوامل الهامة الـــتي ركـــز عليـــها المنصرون تركيزا خاصا، فقد اقتحمت الإرساليات التبشيرية حملتها في المناطق التي مر بها الجيش الفرنسي، وخلـــف فيها وراءه الضحايا والمشردين، بعد أن أحرق البساتين والمزارع، وهدم البيوت. وفوق هذه الأنقاض يستقر الآبـــاء البيض، ويجوبون المناطق المنكوبة يحملون الغذاء والكساء والدواء بيد، والصليب والإنجيل باليد الأخـــرى: " فـــلا يطعمون البطون الجائعة، ولا يداوون الجروح الغائرة، ولا يكسون الأجسام العارية، إلا إذا قبلت الضحية التخلـــي عن أقدس مقدساتها، وهو دينها الحنيف، ورضيت بالدخول في النصرانية"[82].

وبعد مجاعة عام 1864 والتي أودت بحياة حوالي نصف مليون جزائري، وما تبعها من انتشار وبـــاء الكولـــيرا والتيفوس، نشط الآباء البيض، وركزوا عملهم في الأساس على الأطفال الصغار[83]، الذين استشـــهد آبـــاؤهم في حروب المقاومة، أو الذين فقدوا أهاليهم بفعل الجوع والأوبئة فجمعوهم في دور الأيتام لتنشئتهم تنشئة مســـيحية. ومن ذلك ما قام به الجنرال (بيجو) حين سلم للأب (بريمو) أطفالا جزائريين وقال له: " حاول يا أبت أن تجعلـــهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار"[84].

فلا غرابة إذن أن نجد الإنسان الجزائري على مشارف عام 1930 يعيش حالة مزرية تعكس بصدق ووضـــوح النتائج المرة لقرن كامل من الاحتلال، ومن الجهود التنصيرية المكثفة التي عملت على تشكيك الشعب الجزائري في عقيدته، أو إخراجه من دائرة الإسلام إلى النصرانية. وترحيل الإسلام من هذه الديار إلى الأبد. ولعل هذا الواقـــع الأليم هو الذي حدا بقادة الاحتلال الفرنسي إلى إقامة تلك الاحتفالات الكبيرة بمناسبة مرور مائة عام على الغـــزو الفرنسي للجزائر، ليعلنوا عن تشييع جنازة الإسلام في هذه البلاد[85].

وقد تفطنت جمعية العلماء لمخاطر التنصير على الشعب الجزائري. فقاومته[86] عن طريق تبصير الجزائريين بحقائق الإسلام. وتنمية الشعور بالعزة بانتمائهم الحضاري العربي الإسلامي وفضح أساليب المنصرين في استدراج الناس. والكشف عن أهدافهم الحقيقية من وراء حملاتهم التنصيرية. وتعرية علاقاتهم الوثيقة بالاستعمار الذي ظل يحتضن الإرساليات التبشيرية منذ بداية الاحتلال. ويدعم وجودها بالتأييد السياسي والمعونات المالية والتسهيلات الإدارية في سبيل دفع عملية إلحاق الجزائر بفرنسا دينيا ولغويا إلى الأمام وتسريعها.

وكان سبيل الجمعية في مقاومة التنصير. إطلاق صرخات الإنذار والتحذير في المساجد وأثناء المحاضرات العامة. وفي المقالات الصحفية. كما حرصت على تنبيه الناس إلى ضرورة التكافل الاجتماعي. وتمتين العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع حتى لا يصبح البائس الفقير واليتيم الضائع فريسة للمنصرين: " وجمعية العلماء عملية واقعية. فرأى أن تيار التبشير المؤيد بأسباب القوة لا يقاوم بالأقوال. وأنه لا يقاوم إلا بتقوية المعاني الدينية في النفوس. ومنها القيام بحق الله في البائس الفقير والرحمة باليتيم. والبر بالمساكين"[87].

كما عملت – من جهة أخرى – على بناء المدارس العربية الحرة باعتبارها وسيلة فعالة لغرس العقيدة الإسلامية في نفوس الأطفال. وتنشئتهم على الاعتزاز بدينهم ولغتهم: " وجدت الجمعية في حرب التبشير بالعمل. فلا تواتيها فرصة لفتح مدرسة عربية إسلامية في مركز من مراكز سلطانهم إلا بادرت إلى تشييدها تحت أسماعهم وأبصارهم. إغاظة لهم. وسدا دون أمانيهم. وإبطالا لكيدهم. وما أغنت قوتهم ولا حماية الحكومة لهم شيئا "[88].

وقد كان رجال التنصير في الجزائر يدركون أن أعدى عدو لهم هم المصلحون. لأنهم يعملون على تنقية الإسلام من البدع والخرافات. وتقديمه للناس في صورته الصافية الصحيحة. لذلك وقفوا بشدة في وجه الجهود التجديدية التي بذلتها الجمعية لتبصير الإنسان الجزائري بمخاطر الحركة التنصيرية: " وما كادت آثار تربية جمعية العلماء تظهر وتأخذ مأخذها من النفوس حتى أحس المبشرون بالشر يطرق ساحتهم. وحتى تنادوا مصبحين واستعدوا الحكومة على جمعية العلماء وكانوا أقوى الأسباب فيما نالها من عنت"[89].

وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلتها الحركة التنصيرية وجندت لها أتباعها. وما وفره لها الاحتلال من إمكانات مادية. وعلى الرغم أيضا من تقادم عهدها بالجزائر. وانتشار البدع والخرافات. وغلبة الجهل والأمية. وتواطؤ الطرق الصوفية المنحرفة مع الاستعمار. وتقاعس بعض علماء الدين عن أداء واجبهم الرسالي خوفا من بطش قوات الاحتلال. إلا أن سياسة التنصير في الجزائر منيت بالفشل الذريع. فلم يستطع الآباء البيض أن يزحزحوا الجزائريين عن عقيدتهم قيد أنملة.

ولعل من أكبر الأسباب التي ساعدت على ذلك تصلب الجزائري في دينه. وتمسكه الشديد بعقيدته. ورفضه التنازل عنه. على الرغم من الإغراءات المادية التي تقدمها له المؤسسات التنصيرية. يقول الإبراهيمي

موضحا ذلك: " ولكن الواقع أن التبشير مع طول المدة واستكمال العدد لم يلق النجاح الذي تناسب مع الجهود المبذولة فيه. والسبب الأكبر في ذلك يرجع إلى شئ واحد هو تصلب الجزائري في دينه مهما بلغت به العامية والأمية والفقر"[90].

وقد كان للجهود التي بذلتها جمعية العلماء أثرها الواضح في التخفيف من النشاط التنصيري الذي لم يستطع أن يحول الجزائريين عن عقيدتهم إلا في نسبة ضئيلة جدا من قرى القبائل النائية حيث تم عزلهم عن العالم الخارجي، ومورست عليهم سياسة تنصيرية مكثفة. يقول الإبراهيمي: " ونحمد الله على أننا خففنا من شرور هذه الفتنة. وعلى أن في الجسم الجزائري مناعة تدفع عنه غوائل هذا البلاء. والمبشرون أنفسهم يشهدون أنهم لم تستزن رقابهم إلا واحدا أو اثنين في الآلاف من جرائمهم وأن جمعية العلماء هي أقوى خصم لهم في هذا الباب"[91].

وهاهو الأب (جيرار) يعترف صراحة بخيبة الأمل التي مني بها المنصرون في الجزائر فيقول: " عندما جئت الجزائر كنت آمل أن يعتنق المسلمون المسيحية. ولكن بعد مرور خمسة عشر عاما تبين لي أنني واهم، وشعر جميع الرهبان الذي توافدوا من فرنسا وكذلك المدنيون، أن المسلمين لم يتنصروا، بل ازدادوا تمسكا بدينهم وتعصبا له"[92].

مقاومة التيار الإلحادي: لا شك أن موجة الإلحاد التي اجتاحت العالم الإسلامي، كانت وليدة الفكر الغربي الذي انتشر في بلاد المسلمين مع بداية النهضة الثقافية والعلمية. وقد استطاع هذا الفكر بما معه من قوة العلم ومظاهر التطور، وألوان التقدم الحضاري المادي أن يجذب إليه طائفة من الشباب المسلم الذين فتنوا به بعد أن غرفوا منه: " إن النهضة العلمية التي بدأت في الشرق الإسلامي في القرن التاسع عشر تسببت في سريان موجة من الإلحاد بسبب اعتناق بعض الذين تأثروا بهذا الفكر الغربي المادي ودافعوا عنه، وبدا في كثير من الذين تعلموا على أيدي أساتذة غربيين، ولكنه شاع بعد ذلك في كثير من المتعلمين في العالم الإسلامي"[93].

وقد أحدث احتكاك الشباب المسلم بالفكر الغربي هزة في اعتقاداتهم ومعارفهم، وصدمتهم الهوة الشاسعة التي تفصل العالم الإسلامي عن العالم الغربي. وبدا لهم أنه لا يمكن لهم أن يبلغوا بعض ما بلغه الغرب إلا بالتخلي التام عن كل ما يربطهم بثقافتهم الأصلية، وطرح جميع اعتقاداتهم ومعارفهم جانبا ليغترفوا من الفكر الجديد الذي رأوا فيه رمز التقدم والتمدن ومفتاح السعادة.

وبما أن الفكر الغربي يقوم في أساسه على مبادئ مادية بحتة، لا تعترف بالأديان ولا بالغيبيات، ولا تقيم وزنا للأخلاق والمثل العليا، وتعد الإنسان سيد الوجود، وتعطيه الحرية التامة في أن يحقق مصلحته ويشبع غرائزه بدون حدود، فقد انساقت طائفة من الشباب المسلم وراءه واستقر في أعماق نفسها أن الغرب لم يصل إلى هذه الدرجة من التقدم في العلوم والرفاهية في المعيشة إلاّ بعد أن طرح الفكر الديني وتخلص من سيطرة الكنيسة على الفكر العلمي وحياة الناس العامة وكذلك يجب أن يكون الأمر في البلاد الإسلامية.

ولم تشذ الجزائر عن هذا الوضع، فقد تعرضت مثل بقية بلدان العالم الإسلامي إلى ورود الفكر الغربي عليها، بل إن حالتها كانت خاصة ومأساوية إذا وضعنا في الاعتبار الوجود الاستعماري الذي كان يعمل على ربط الجزائر بفرنسا، وجعلها قطعة من الأرض الأم. وفي سبيل ذلك اتبع سياسة ثقافية معينة، تمثلت بصفة خاصة في طمس معالم الثقافة العربية الإسلامية وتجفيف منابعها واستبدالها بالثقافة الفرنسية تمهيدا لإدماج الجزائريين في المجتمع الفرنسي: "الإلحاد ضيف ثقيل حل بهذا القطر منذ انتشرت بين أبنائه الثقافة الأوروباوية عن طريق التعليم اللاديني أو عن طريق التقليد الأعمى. وغذته غفلة الآباء والأولياء عن هذه الناحية الضعيفة من أبنائهم"[94].

لذلك واجه الشباب الجزائري حملة تغريبية منظمة، واسعة النطاق، محكمة الخطط لاحتوائه وصياغة عقليته وفق المنهج الغربي في التفكير والسلوك. ولقد كان الاستعمار الفرنسي يعلق على هذه السياسة آمالا عريضة وكان ينتظر أن تخرج له جيلا جزائريا منسلخا عن قيمه ومبادئه، متشبعا بالفكر الغربي يستند عليه في توطيد نفوذه في الجزائر، وتسهيل عملية الإدماج التي كانت حلما عذبا يراود قادة الاستعمار.

وقد استطاعت الأساليب الاستعمارية – التي كانت تستغل كل الثغرات المفتوحة في المجتمع الجزائري – أن تجر بعض الشباب الجزائري إلى هذه البؤرة. فبرزت إلى الوجود جماعة (النخبة) في سنوات الثلاثين، والذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية، وتولوا مهمة الدفاع عن فكرة إدماج الجزائر بفرنسا، بل إن بعضهم ذهب إلى حد إنكار وجود أمة جزائرية [95]. وتجرأت جماعة منهم، فدعت المسلمين إلى التنازل عن الأحوال الشخصية الإسلامية في سبيل الحصول على الحقوق المدنية والسياسية من الاستعمار الفرنسي.

وإلى جانب هذه الحملة الثقافية الاستعمارية، ظهرت الموجة الشيوعية التي انتشرت في العالم بعد الحرب العالمية الأولى، والتي وفدت إلى الجزائر عن طريق الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كون فرعا له في الجزائر، وبعد أن توسعت نشاطاته تحول إلى حزب شيوعي جزائري مستقل، واستطاع أن يجمع حوله بعض الشباب الجزائري الذي كان يتلقى المبادئ الشيوعية أثناء الاجتماعات وعن طريق الخطب والمحاضرات.

وقد مثل هذا العامل – على الرغم من ضيق محيطه – دفعا قويا لموجة الإلحاد التي انتشرت بين الشباب، بسبب المبادئ التي تقوم عليها الحركة الشيوعية، والتي تستبعد الأديان من حياة الناس، وترى في الاعتقادات

الدينية مخدرا للشعوب، ولا تعترف بالأشواق الروحية، وتبني أمرها كله على المــادة والمصلحــة والصــراع الطبقي الأزلي بين الأغنياء والفقراء.

وقد وضعت جمعية العلماء نصب عينيها هذه الظاهرة، ورأت أن الواجب يملي عليها أن تهتم بها. وتدرجــها ضمن انشغالاتها، خاصة وأن الأمر يتعلق بشريحة هامة من شرائح المجتمع وهي طائفة الشباب الذي تعده الجمعيــة الدم الجديد [96] الذي يسري في عروق الأمة فيبعث فيها القوة والحياة. وترى فيه عدة المستقبل وذخر الأمة وأملــها الذي تعلق عليه أمنيتها في التحرر والانعتاق ومن أجله بذل العلماء جهودا مضنية لإعادته إلى الحياة بعد أن أفقــده الجهل والفقر والواقع البائس الإحساس بها. وخصصوا له حيزا هاما في برامجهم الإصلاحية.

وقد حاول الإبراهيمي– من خلال قراءته للواقع الجزائري – أن يحصر الأسباب التي ساعدت على انتشــار الإلحاد بين الشباب الجزائري، فتبين له أنه يمكن اختصارها في ثلاثة أسباب رئيسية :

1- التعليم الفرنسي اللاديني: فقد كانت مناهج التعليم الفرنسي اللاديني تستمد أساسياتها من الفكر الغربي المادي، وإنكار الجانب الروحي في الإنسان. وكان الجزائريون الذين يتلقون هذا التعليم يخضعون لسياسة تعليمية خاصــة، الهدف منها هو تخليصهم من الموروث الثقافي العربي الإسلامي الذي يشكل شخصيتهم الحضارية، وتشويه التــاريخ الإسلامي في أذهانهم. والاستهانة بالعقيدة وصياغة عقولهم وفق نمط أوروبي. يقول الإبراهيمي: " التعليم الأجنبي – على تفاهته في الكيف وقلته في الكم – وعلى اضطرارنا إليه وإقبالنا عليه – يسبقه جهل، وتقترن به آفات، وتعقبــه مفاسد وهو – على ذلك كله – يفتح عينا، ليعمي عينا، ومن بلغ إلى غايته منا أصبح بالطبيعة متنكرا لماضيه ودمــه وقومه، لأن ذلك التعليم وجده فارغا فملأه بما يشاء هو، لا بما نشاء نحن"[97]. لذلك أكد أن التعليم الفرنسي كــان أحد الأسباب الهامة التي مهدت لانتشار الإلحاد بين الشباب الجزائري.

2- انتشار البدع والخرافات : يرى الإبراهيمي أن انتشار البدع والخرافات الــتي شــوهت الديــن الإســلامي، وحجبت جوهر العقيدة، ومكنت للأساطير في العقول كانت أحد أسباب انتشار الإلحاد بين الشــباب الجزائــري الذي فتح عينيه على حقائق العلم، وأدرك الفرق الشاسع بين ما يجري في الحياة وما تدعو إليه تلــك الخرافــات، فأعرض عنها ورماها، ورمى معها كل ما يسمى دينا لاعتقاده أن ذلك الركام من الضــلالات والأبــاطيل هــو الإسلام، وأن كل ما فيه يصادم العقل ويتعارض مع العلم: " إن لفشو الخرافات وأضاليل الطرق بين الأمــة أثــرا كبيرا في فشو الإلحاد بين أبنائها المتعلمين تعلما أوروباويا، الجاهلين بحقائــق دينهم، لأنهم يحملون من الصغر فكــرة أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، وأن أهلها هم حملة الدين، فإذا تقدم بهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علــم ولا عقل فأنكروها حقا وعدلا، وأنكروا معها الدين ظلما وجهلا"[98].

3- جمود العلماء ونفورهم من الشباب المتعلم تعليما فرنسيا: لقد كان العلماء الجامدون الذين درجوا على التقليد، وتشبعوا بثقافة عصور الجمود والركود لا يحاولون أن يسايروا الحياة وتغيراتها. فكانوا ينظرون إلى الشباب المتعلم الذي يجادلهم فيما غمض عليه من أمور دينه ليعرف الحق عن طريق الدليل والبرهان نظرة احتقار وشك ونفور، ويتهمهم بالزندقة والمروق من الدين فازداد الشباب ابتعادا عنهم ونفورا من الدين: " وإن من الأسباب التي مكنت للإلحاد في نفوس الشباب المتعلمين مجانبة علماء الدين الجامدين لهم، ونفورهم منهم، وهي عادة ما يزال يتسم بها هذا الصنف من العلماء إلى الآن. وبهذه العادة السيئة كادوا يضيعون على الأمة طائفة من أبنائها هم ذخرها للمستقبل وعدتها للشدة "[99].

وقد بذلت الجمعية جهودا محمودة في سبيل تجنيب شباب الأمة هذه الآفة. ومنها محاولة التقرب منهم، ومخالطتهم والسعي لإدماجهم في بيئتهم العربية الإسلامية، والتلطف في استدراجهم إلى المحاضرات والدروس الدينية، والاحتفالات الموسمية التي تقيمها في النوادي الإسلامية التي أسستها الجمعية خصيصا لاستقبال الشباب الذي لم تستطع أن تتصل به في المساجد أو في المدارس العربية الحرة. يقول الإبراهيمي: " إن جمعية العلماء ترى أن النوادي الإسلامية التي تؤسسها أو تشرف عليها هي وسط جامع بين المدرسة وبين الجامع، لأن هناك طائفة عظيمة من شباب الأمة لا تجد الجمعية وسيلة لتبليغه دعوة الدين والعلم إلاّ في تلك النوادي"[100].

وهو يعترف أن الجهود التي بذلها العلماء في مجادلة الشباب الذي انساق مع موجة الإلحاد بالتي هي أحسن قد آتت أكلها في كثير من الشباب الملحد. وأن مهمة العلماء في إعادتهم إلى حظيرة الإسلام كانت أسهل من الحرب التي قادوها ضد البدع، لأن هذه الفئة من الشباب معها الزاد العلمي الذي يدعمه الإدراك الصحيح للحقائق، والقدرة على المقارنة وترجيح الأدلة، والاهتداء إلى الحق باستعمال العقل: " لكن رجال جمعية العلماء يعلمون أن هذه الطائفة المعرضة للإلحاد هي زهرة الأمة وأنها جديرة بكل عناية واهتمام. وأنها - وإن لم تسلم من طائف الإلحاد - سالمة من الجمود والتحريف، وأنها أقرب إلى الإصلاح والرجوع إلى الحق بما معها من إدراك صحيح وبما فيها من ملكات الاستدلال. لذلك مازجوا هذه الطائفة وخلطوها بأنفسهم وعرفوا كيف يجذبونها إلى المحاضرات والدروس الدينية. فكان لهذه الطريقة الرشيدة أثرها الصالح في تقويم زيغ الزائغين منها وإرجاعهم إلى حظيرة الدين بكل سهولة"[101].

وعلى الرغم من كل ما بذلته الجمعية لتجنيب أبناء الجزائر الانسياق وراء موجة الإلحاد، إلاّ أنها كانت ترى أن ذلك غير كاف لمعالجة هذه الظاهرة والحد من انتشارها، وأن جانبا عظيما من المسؤولية تتحملها الأسرة التي يقع على كاهلها عبء تنشئة الأطفال على الدين الصحيح والعقيدة الصافية التي تحميهم من الزيغ والانحراف: " إن

هذا الجهد الذي تجهده جمعية العلماء في مقاومة الإلحاد هو غاية الممكن في هذا الباب. أما الدواء، الذي يجتث هذه العلة من أصلها فهو قيام الآباء بواجبهم من التربية الدينية الصحيحة "[102].

وفي ذلك إشارة إلى ما تكتسيه الأسرة من أهمية وخطورة في تحصين المجتمع وحمايته من الغارات الفكرية. وقد عبر الإبراهيمي عن أسفه لعجز الأسرة الجزائرية عن القيام بدروها الحضاري بسبب الجهل المخيم والأمية المتفشية. وأكد أن هذا الاختلال الواقع في توزيع الأدوار في المجتمع قد أحدث ثغرة فيه من الصعب أن تسد: " ومادام أبناؤنا يأوون إلى بيوت قواعدها الجهل وقعائدها الجاهلات الخرافيات. فنحن بين حالين لا ندري أيهما شر؟ الأمية ومعها التخريف، أو القراءة ومعها الإلحاد "[103].

وننتهي من كل ذلك إلى القول بأن الحقيقة التي يثبتها التاريخ هي أن جمعية العلماء قد استطاعت فعلا – وفي مرحلة تاريخية حرجة – أن تتحمل مسؤولياتها الحضارية. حين وقفت في تشخيص أمراض المجتمع الجزائري، وفي وصف العلاج وتحديد الأولويات. ثم في العمل الدائب المخلص الذي يسانده الإيمان العميق بالمبدأ والثقة التامة بالنصر آخر المطاف.

ذلك أن اختيار مبدأ تجديد العقيدة كمنطلق للعمل الحضاري الذي استهدف إيقاظ الشعب الجزائري وانتشاله من الهوة العميقة التي كان يقبع فيها، كان خطوة موفقة إلى أبعد الحدود. يدل على ذلك الآثار العميقة والبصمات الواضحة التي تركتها حركة جمعية العلماء في هذا المجال في المجتمع الجزائري.

فقد رابط رجالها في المساجد والنوادي والتجمعات العامة يقتلعون جذور الفساد من العقول ويتصدون للركام الضخم من الأضاليل والخرافات الذي كان يعشش في الوجدان، ويضيئون العقول بنور المعرفة. ويحيون النفوس بالعلم الصحيح. واستجمعوا جهودهم في محاضرات ودروس ومواعظ لا تكاد تتوقف، ليحرروا الإنسان الجزائري من القيود التي كانت تكبل عقله وتشل حركة تفكيره.

وقدموا الإسلام للناس في سهولته ويسره. وبسطوا عقائده وأخلاقه وفضائله للعامة في سماحة، ووضحوا صورته المشرقة الناصعة. ونبعه النقي الصافي كما جاء في الكتاب والسنة وحملوا حملة قوية على الطرق الصوفية المنحرفة التي كانت تستأثر بالحياة الروحية للشعب الجزائري. فسفهوا معتقداتها، وأبطلوا أعمالها. وجادلوا مشائخها فألزموهم الحجة، ونقضوا دعاواهم الباطلة.

وبدأت المفاهيم البالية والأفكار العتيقة – بتأثير هذه الثورة الفكرية – تتساقط الواحدة تلو الأخرى، ويتساقط معها أساطين الطرقية الذين حموها وحصنوها بخرافاتهم طوال سنوات الظلام، وعرف العقل الجزائري طريقه إلى التفكير الصحيح السليم بعد أن حمل رجال الإصلاح حملة شعواء على التقليد والجمود. واستحثوا

العقول لتتحرك وتتساءل وتشك، وتبحث عن الدليل المقنع والحجة الدامغة فيما يصل إليها من معارف، وكان هذا في حد ذاته انتصارا كبيرا على الواقع المظلم المتردي.

وفي الختام لا نبالغ إذا قلنا أن فضل حركة جمعية العلماء في تجديد العقيدة على الشعب الجزائري كان عظيما. وأن تأثيرها في توجيه العقلية الجزائرية خلال تلك المرحلة كان قويا، يشهد على ذلك التطور الكبير الذي عرفته العقلية الجزائرية التي نبذت التواكل والكسل واشرأبت أعناق الشعب نحو غد كله تفاؤل وأمل.

---

[1] – قاطب، سيد. بيير معالم في الطريق، ص 11.

[2] – المبارك، محمد. المجتمع الإسلامي المعاصر، ص 54.

[3] – عمارة، د. محمد، الإسلام والمستقبل، ص 10.

[4] – السجستاني، أبوداوود سليمان الأشعث. صحيح سنن المصطفى، ص 209.

[5] – البصائر، س2، ع71، 18 جوان 1937، و: الشهاب: ج4، م13، 11 جوان 1937، ص 176 إلى 179.

[6] – ابن باديس، عبد الحميد. آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ص 75.

[7] – النحل، 36.

[8] – الإبراهيمي، محمد البشير. عيون البصائر، ص 290.

[9] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ص 152.

[10] – حمزة، عبد اللطيف. مستقبل الصحافة في مصر، ص 145.

[11] – أوردت دائرة المعارف الإسلامية أن: " في الجزائر حسب تحقيقات ديبون (DUPON) وكوبولاني (COPPOLANI) ثلاثة وعشرون طريقة صوفية، لها مائتان وخمسة وتسعون ألفا ومائة وخمسة وثمانون مريدا (295.185) وعليها سبعة وخمسون شيخا، وستة آلاف مقدم. وعندها تسعة وأربعون زاوية. وتجبي من الإخوان سبعة ملايين... ولمشائخ الطرق والمرابطين نفوذ عظيم، ومكانة لا تساويها مكانة في الجزائر عند جميع الأهالي لا سيما البربر، وأن العلماء والمدرسين والمفتين والقضاة وأئمة المساجد لا يكادون يكونون شيئا بالقياس إلى المرابطين ومشيخة الطرق (مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، مادة (الجزائر)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت، ج6، ص 388.

[12] – المدني، أحمد توفيق. كتاب الجزائر، ص 376.

[13] – يروي الإبراهيمي أن المعمرين الفرنسيين كانوا يبنون على أطراف مزارعهم قبابا بيضاء ويوهمون السكان أنها لأولياء صالحين. ويشجعونهم على إقامة الزردات عندها حتى يأمنوا على مزارعهم من السرقة لما يعرفون من تقديس الأهالي لهذه القباب ورهبتهم منها (الإبراهيمي، محمد البشير. عيون البصائر، ص 356). كما اكتشفت الثورة الجزائرية في بعض المناطق الشرقية أن ضريحا من الأضرحة التي كان يؤمها الناس بكثرة ويتبركون بأعتابها اعتقادا منهم أنها لأحد أولياء الله الصالحين كانت قبرا لراهب مسيحي (خرفي د، صالح. صفحات من الجزائر، ص 324).

[14] – الميلي، مبارك بن محمد. رسالة الشرك ومظاهره، ص 103.

[15] – كانت النساء في بعض المناطق يعمدن إلى حوض ماء حار معدني يسمى (البرمة) فيرمين فيه التمر والحمص والجوز واللوز فتأتي السلاحف وتأكله. عند ذلك تزغرد النساء اعتقادا منهن أن الجن قد رضيت بما فعلن وأن هذا دليل على الاستجابة لدعواتهن، وتحقيق أمانيهن. (ناصر .د. محمد. المقالة الصحفية الجزائرية. ص 77) وهذا شكل من أشكال الطقوس الغريبة. والبدع الكثيرة التي كانت منتشرة بشكل واسع في الجزائر.

[16] – البصائر، ع3، 17 جانفي 1936، البشير العلوي، نهضة الإصلاح الديني وأثرها في النفوس، ص 7.

[17] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 118.

[18] – المصدر نفسه، ج 1، ص 125.

[19] – ومن هؤلاء العلماء: الشيخ صالح بن مهنا، وعبد القادر المجاوي (ت 1913)، وعبد الحليم بن سماية (ت 1933) ومحمد بن مصطفى بن الخوجة، والمولود بن الموهوب (ت 1939) وعمر بن قدور الجزائري (ت 1932) وكذلك أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قبل تأسيسها عام 1931.

[20] – جمعية العلماء، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 61.

[21] – تعرف جمعية العلماء البدعة كمايلي: " البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة، ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فعله، وكل بدعة ضلالة "، البصائر، س2، ع71، 18 جوان 1937.

[22] – الثقافة، ع 87، س15، ماي–جوان 1985، الجزائر، الإبراهيمي، " أنا " ص 24.

[23] – تعرض عبد الحميد بن باديس بعد مهاجمته للبدع وللمبتدعين في (المنتقد) ومن خلال دروسه، إلى محاولة اغتيال عام 1926 من طرف أحد مدبري الطريقة العلوية. (أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1984، ص93، 94، 95). كما تعرض الحاج محمد بوزيان أحد رجال الجمعية البارزين في منطقة القرارم بقسنطينة إلى محاولة اغتيال أيضا عندما أطلق عليه أحد الشبان الذين استأجرتهم الطرقية رصاصتين أصابتاه في شقه الأيسر، وقد بين التحقيق أن السبب الذي يكمن وراء هذه المحاولة هو غيظ الطرقية من اكتساح دعوة الإصلاح لهذه المنطقة وذهاب نفوذهم (البصائر، س1، ع4، 29 شوال 1354 هـ الموافق 24 جانفي 1936 م).

[24] – السنة، س1، ع4، 6 محرم 1352هـ الموافق 1 ماي 1933، عبد الحميد بن باديس: " إنكار العلماء المتقدمين على المبدعين المبتدعين".

[25] – بدأ عبد الحميد بن باديس حربه للبدع الدينية منذ أن جلس للتعليم بالجامع الأخضر، ثم اشتدت الحملة عليها بعد تأسيس (المنتقد) و(الشهاب). وبقيت كذلك إلى أن تبنت جمعية العلماء حرب البدع كجزء أساسي من عملها.

[26] – السنة، س1، 6 محرم 1352هـ، الموافق 1 ماي 1933، عبد الحميد بن باديس: " إنكار العلماء المتقدمين على المبدعين المبتدعين".

[27] – المصدر نفسه.

[28] – وفي هذا الإطار كتب الشيخ مبارك الميلي سلسلة من المقالات في جريدة البصائر، حارب فيها التصوف، وفضح مظاهر الشعوذة والدجل، ودرس أطوار المجتمع الجزائري وعاداته وتقاليده، وصلتها بالدين الصحيح بأسلوب علمي قائم على الاستشهاد بالنصوص، مستند إلى الدلائل النقلية في كثير من الأحيان. وقد تم جمعها بعد ذلك في كتاب حمل اسم (رسالة الشرك ومظاهره). (عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص 267، 268).

[29] – الإبراهيمي، محمد البشير. عيون البصائر، ص 342.

[30] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 408.

[31] – جمعية العلماء. سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص61.

[32] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 216.

[33] – الإبراهيمي، محمد البشير. عيون البصائر، ص 316، 317.

[34] – المبارك، محمد. المجتمع الإسلامي المعاصر، ص 54، 74.

[35] – يعرفه الايجي بأنه: " علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه" ويعرفه ابن خلدون بأنه: " علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة. (د. السيد محمد عقيل بن علي المهدلي، مقدمة في العقيدة الإسلامية وعلم الكلام، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 1993، ص61، 62).

[36] – راجع تفاصيل ذلك في: " الملل والنحل " للشهرستاني، و" الفرق بين الفرق" للبغدادي.

[37] – عبد الحميد، د. محسن. تجديد الفكر الإسلامي، ص31.

[38] – ابن باديس، عبد الحميد. تفسير عبد الحميد بن باديس، ص 158.

[39] – المصدر نفسه، ص 282.

[40] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص232.

[41] – المصدر نفسه، ج1، ص232.

[42] – المصدر نفسه، ج1، ص 95.

[43] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 207.

[44] – عبد الحميد، د. محسن. تجديد الفكر الإسلامي، ص 36.

[45] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 98.

[46] – المصدر نفسه، ج1، ص99.

[47] –المصدر نفسه، ج1، ص 98.

[48] –المصدر نفسه، ج1، ص 97.

[49] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 98.

[50] – بن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، ص 467.

[51] – النشار، د. علي سامي. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1،ص 32–344.

[52] – طه، 5.

[53] – عياض، القاضي. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج1، ص 171.

[54] – بن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، ص 463.

[55] – المقريزي، الخطط. ج4، ص 181.

[56] – ابن باديس، عبد الحميد. العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، جمع وتعليق محمد الصالح رمضان، ص 10.

[57]– الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 98.

[58] – المصدر نفسه، ج1، ص 94.

[59] – ابن باديس، عبد الحميد. العقائد الإسلامية، تصدير: الإبراهيمي، ص6.

[60] – المصدر نفسه، ص 6.

[61] – ابن باديس، عبد الحميد. تفسير عبد الحميد ابن باديس، ص 158.

[62] – الأنبياء، 22.

[63] – المؤمنون، 91.

[64] – غافر، 3.

[65] – مريم، 65.

[66] – الشورى، 11.

[67] – الإخلاص، 1–4.

[68] – ابن باديس، عبد الحميد. العقائد الإسلامية، ص 53، 54.

[69] – هو محمد الصالح رمضان، أحد تلامذة ابن باديس، تولى نشر كتاب " العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة" والتعليق عليها.

[70] – هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي الحسني (832 – 895 هـ) من كبار علماء تلمسان وزهادها في عصره. عالم في التفسير والحديث وعلم التوحيد. له مؤلفات كثيرة وبخاصة في علم الكلام منها (عقيدة أهل التوحيد) ويسمى بالعقيدة الصغرى، و(العقيدة الوسطى) و(شرح صغرى الصغرى) و(شرح الأسماء الحسنى) في كراسين، و(شرح جمل الخونجي) في المنطق، و(شرح مقدمات الجبر والمقابلة) لابن ياسين، و(العقد الفريد في شرح مشكلات التوحيد) وغيرها من الكتب التي شاع بعضها وانتشر في الشرق والغرب، وقررت في أكبر المعاهد الإسلامية كالأزهر.

[71] – ابن باديس، عبد الحميد. العقائد الإسلامية، تصدير: الإبراهيمي، ص8.

[72] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبرهيمي، ج4، ص 185.

[73] – المصدر نفسه، ج4،ص158.

[74] – فرحات، عباس. ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، ص 91.

[75] – هو توماس بيجو (1784 – 1849) ولد بليموج بفرنسا. تولى حكم الجزائر سنة 1841. وبقي بها حتى 1847 سلك خلالها سياسة القهر والعنف نحو الجزائريين. وسياسة حرب الإبادةضد المقاومة الشعبية التي كان يقودها الأمير عبد القادر. (راجع: أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. ط1. 1992. ج1. ص 216-266).

[76] – درمونة، يونس. المغرب العربي في خطر، ص 34.

[77] – هو شارل لافيجري، ولد عام 1825 بايون في فرنسا، أصبح كاهنا وعمره 24 سنة. تحصل على دكتوراه في اللاهوت من جامعة السوربون، ودكتوراه في القانون المدني والكنسي من جامعة روما. عمل كأستاذ بجامعة السوربون لمدة 6 سنوات. زار فلسطين ولبنان وأسس فيهما مياتم للنصارى. قدم إلى الجزائر عام 1866 بناء على طلب الجنرال ماكماهون. عين مطرانا عام 1867، ثم كاردينالا للجزائر عام 1882، توفي عام 1892.

[78] –عباس، فرحات. ليل الاستعمار، ص 105.

[79] –من أنشط البعثات التنصيرية في الجزائر. أطلق عليها اسم (الآباء البيض) لأنهم كانوا يلبسون برانس بيضاء وغطاء رأس أحمر تشبها برجال الدين الإسلامي، ومشائخ الزوايا. وقد خرجوا عن تقليدهم المسيحي العريق في ارتداء اللباس الأسود إمعانا منهم في تضليل المسلمين ليجذبوهم إلى شبكة التنصير.

[80] – المدني، أحمد توفيق. كتاب الجزائر، ص217.

[81] –سلمان،د.، نور. الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 101.

[82] – رابح، تركي. عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص 42.

[83] –جمع الكاردينال لافيجري بعد المجاعة 1753 فقيرا مشردا، تتراوح أعمارهم بين 8 و15 سنة. وأنشأ لهم ديرا بعيدا عن المدن لتنشئتهم على المسيحية.

[84] –الخطيب، أحمد. الثورة الجزائرية، دراسة وتاريخ، ص 118.

[85] – الثقافة، ع87، ماي–جوان 1985، الجزائر، الإبراهيمي، " أنا " ص 27.

[86] –جمعية العلماء، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 66.

[87] –الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 237، 238.

[88] – المصدر نفسه، ج4، ص 238.

[89] –المصدر نفسه، ج4،، ص 238.

[90] – جمعية العلماء، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 66.

[91] – الإبراهيمي، محمد البشير. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 238.

[92] –الجندي، أنور. الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص 157.

[93] –عثمان، محمود عبد الحكيم. جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي، ص 40.

[94] –جمعية العلماء، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 62.

[95] –قال أحد النواب الجزائريين أن: " الأمة الإسلامية الجزائرية مجمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة، لا وطن لها إلا الوطن الفرنسي، ولا غاية لها إلا الاندماج الفعلي التام في فرنسا. كما قال أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر، وفتش عنها في الحالة الحاضرة فلم يعثر لها على خبر. وقد رد عليه عبد الحميد في مجلة (الشهاب) ردا مفحما أثبتت فيه للجزائر أصالتها، وقال كلمته المشهورة: " إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت" (الشهاب، ج1، م12، أول محرم 1355 الموافق أفريل 1936).

[96] –الإبراهيمي، محمد البشير. عيون البصائر، ص49.

[97] – المصدر نفسه، ص. 303.

[98] –جمعية العلماء. سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 64.

[99] –المصدر نفسه، ص 63.

[100] –الإبراهيمي، محمد البشير. عيون البصائر، ص 27.

[101] – جمعية العلماء. سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، ص63.

[102] – المصدر نفسه، ص 63.

[103] –المصدر نفسه، ص 63،64.